
معركة الجمل ٣٦ هـ

الصراع الديني والصراع السياسي

من رحمة الله بأمة الإسلام أن وقعت معركة الجمل سنة ٣٦ هـ لأنها وقعت بين فريقين من الصحابة، أولاً الأمر الذى يعنى إمكانية وقوع قتال بين المتقين وبين المؤمنين وبين المسلمين دون أن يكون أحد الفريقين كافراً والآخر مؤمناً. بل فقل كلاهما مؤمناً ومسلماً ولو وقع هذا القتال بين طرفين من المسلمين فيما بعد دون حدوث موقعة الجمل، لكان الأمر قد انصرف إلى كفر أحد الطرفين وإيمان الطرف الآخر، أو كفر الطرفين معاً، ولكن وقوع القتال بين صحابة رسول الله ﷺ ورضى الله عن الصحابة أجمعين، كان نوعاً من التجربة العملية التى تؤدى إلى استنتاج أن الخلاف بين طرفين والقتال بينهما لا يخرج أحد منهم من الملة، بل يكون نوع من الخلاف السياسى أو الفكرى أو حتى الشخصى، أو حول وجهات النظر والأمر مردود هنا إلى البينة والله أعلم بها وليس نحن، ومن ثم فإن هذه المعركة قد حسمت أمر الخلاف الدينى إلى غير رجعة وأخرجت الإسلام

بالضرورة، من كل خلاف بين المسلمين الذين يكون لكل فريق منهم وجهة نظر صحيحة أو خاطئة.

وثانيا: هذا القتال وقع بين طرفين الأول بقيادة الخليفة الراشد على بن أبي طالب رضي الله عنه ومعه كثير من الصحابة الموثوقين والمعتبرين وهو مبشر بالجنة، والثاني فيه طلحة والزبير بن العوام وكل منهم مبشر بالجنة، والسيدة عائشة رضي الله عنها وهي زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة ولها كل الفضل والاعتبار، وبديهي أن ذلك لو كان صراعا دينيا لكان أحد الطرفين كافرا والآخر مؤمنا أو كلاهما كافرا، وبما أن في الطرفين من هو مبشر بالجنة إذن فالأمر ليس صراعا دينيا، بل صراع حول وجهات النظر، أو الأولويات أو غيرها، أي حول السياسة والأفكار وليس الدين، وفي الحقيقة فإن الخلاف على وجهات النظر لا يجب أن يؤدي إلى القتال، ولكن إذا أدى لقتال فإن ذلك لا ينبغي أن يتحول إلى تكفير أو إخراج من الملة، بل يظل محصورا في نطاق ضيق وعلي الجميع أن يراجع مواقفه ويحاول أن يلتمس العذر لخصمه وأن يصل إلى وحدة المسلمين في النهاية.

وثالثا: فإن هذه المعركة كانت حول الخطأ والصواب في التقدير، وتحديدًا حول الدعوة إلى القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه فوراً أو حين تكون القدرة وألا يحدث ذلك فتنة أكبر، الرأي الأول كان لطلحة والزبير وعائشة، والثاني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أجمعين.

وإن كنا نرى أن وجهة نظر علي بن أبي طالب كانت الصحيحة وهذا رأي جمهور علماء أهل السنة والجماعة، وأن الخطأ كان عند معسكر طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، ولكن الأمر يظل محصوراً في الخطأ والصواب والنية يعلمها الله تعالى.

ورابعاً: فإن هناك حديث كبير حول دور السبئية وعبدالله بن سبأ في الفتنة من أولها إلى آخرها، ونحن لا نرفض هذا الرأي ولا نشكك في صحة تلك المعلومات ولكن نحن أمام رجال ونساء عاقلون وعاقلات، لديهم خبرة وحكمة وورع، ولا يمكن لمحدث فتنة مهما كان ذكياً مثل عبدالله بن سبأ ومن كان معه أن يحققوا نتائج كبيرة أو صغيرة إلا إذا كانت هناك استعدادات عقلية أو نفسية أو مناخ ملائم لهذا، فالقابلية للفتنة شرط لنجاح مدبري الفتنة، وإذا لم تكن هناك قابلية للفتنة فلن تنجح أو تنجح في إطار محدود.

وقائع معركة الجمل:

سميت المعركة معركة الجمل لأن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - كانت في المعركة في الجولة الثانية. وسط جيش البصرة تركب جملاً جاءت به من مكة إلى البصرة، وكانت المعركة يوم الجمعة في السادس عشر من جمادي الثاني سنة ست وثلاثين هجرية في منطقة الزابوقة قرب البصرة،

ويقال إنها جاءت لتمنع وقوع القتال بين الطرفين والله تعالى أعلم، كانت المعركة على جولتين الجولة الأولى، كان قائد جيش البصرة المنائى لعلي بن أبي طالب عليه السلام، بقيادة طلحة والزبير رضي الله عنهما واستمرت من الفجر حتى قبيل الظهر، ونادى على في جيشه كما نادى طلحة والزبير في جيشهما لا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح، ولا تلحقوا خارجا من المعركة تاركاً لها، وقد أصيب طلحة في بداية المعركة إذ جاءه سهم غرب لا يعرف من رماه فأصابه إصابة مباشرة ونزف دمه بغزارة فرجع إلى البصرة ووضع في دار فيها ليعالج، إلا أنه توفي ثم دفن في البصرة، أما الزبير فيقال إنه انصرف عن المعركة، وقتل خارجها وانتهت الجولة الأولى بانتصار جيش علي.

وفي الجولة الثانية حاولت السيدة عائشة رضي الله عنها وقف الحرب، ودعت إلى ذلك، إلا أن النبال أصابت هودج جمل عائشة، ثم اشتد القتال، وقتل أمام جمل عائشة كثير من الناس وقتل عبدالله بن الزبير بن العوام بعد أن قاتل قتالا شديدا وتم أسر السيدة عائشة، وقد أسفرت المعركة عن مائتي قتيل من الطرفين، وبالف البعض في العدد إلى عشرات الألوف لزيادة الفتنة طبعاً، وانتهت المعركة بانتصار جيش علي.

وما أن انتهت المعركة حتى نادى منادى على ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبرا ولا يدخلوا دار، ومن القي السلاح فهو آمن ومن أغلق

الباب فهو آمن وليس لجيشه من غنيمة إلا ما حمل إلى المعركة من سلاح وكراع وليس له وراء ذلك من شيء، بل أمر أن من يجد شيئا من متاعه من الجيش المناوئ لذي رجال جيش على فله أن يأخذه. ورفض فكرة السبي تماما وقال بعض أتباع علي: تحل لنا دماؤهم، ولا تحل لنا نساؤهم، قال على كذلك السيرة في أهل القبلة.

وتفقد الخليفة على بن أبي طالب الجرحى من الطرفين وقال: إني لأرجو الله أن أكون من الذين قال الله فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧)، ثم قال ومن هم إن لم نكن، ومن هم إن لم نكن ومن هم إن لم نكن..

إذن هذه معركة، وقع فيها قتال وقتال شديد جدا، ووقع فيها قتلى من الطرفين، وصلى على على القتلى من الطرفين، ويمكن أن نرجع ذلك إلى الفتنة من أتباع عبدالله بن سبأ، ولكن المقاتلون الأشداء كان فيهم المشهود لهم من الصحابة في الطرفين، فلا يكفي تفسير فتنة أتباع ابن سبأ لهذه المعركة، هناك مسئولية واضحة ومباشرة على الطرفين، وهكذا فإن بالإمكان أن يقاتل الصالحون المؤمنون المسلمون بعضهم بعضا، دون أن يكفر أحدهم الآخر، وسيدنا على رضي الله عنه رفض سبي النساء بل ورد الغنائم إلى مقاتلي الطرف الآخر، وترحم على الطرفين إذن

المسألة فيها صواب وخطأ لا أكثر ولا أقل، وهناك تفسير آخر أن بعض المتطرفين من جيش علي، كانوا يزيدون المعركة اشتعالا كلما هبوا، وهذا لا يصلح تفسير فعلي بن أبي طالب ليس هو الشخص الذي يقوده متطرفون، ورفض منطق الخوارج بعد معركة صفين وكانوا أشد قوة، إلا أن المتطرفين في كل زمان ومكان يضرون الأمة أيما ضرر حتى ولو كان رائدهم التورع الكاذب أو الصادق.

من دروس تلك المعركة أن من دخلها وتأولا ندم بعد ذلك وهو لم يغير موقفه السياسي أو الفكري، فما زال يرى أنه على صواب وأن الطرف الآخر على خطأ، ولكن ندم إلى انجراره إلى القتال فقط، فندم على وندم طلحة والزبير قبل أن يموتا وندمت السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين. من دروس تلك المعركة أيضا أن رجلا جاء إلى الزبير بن العوام أثناء المعركة وعرض عليه أن يقتل عليا، وذلك بأن يندس مع جيشه ثم يفتك به، فأنكر عليه الزبير ذلك بشدة، وقال لا، لا يفتك مؤمن، وأن الإيمان قيد الفتك، ولعل تلك الواقعة تكون عبرة للتمعن والتدبر فيمن يستحل اغتيال المسلمين أيا كانوا تقاه أو عصاة.

من الضروري هنا أن نذكر بعضا من فضائل الطرفين حتى نتأكد أن

المعركة كانت بين فضلاء، فالسيدة عائشة شهد لها الخليفة على بن أبي طالب نفسه وعاقب من ينال منها بائة جلدة وعمار بن ياسر رضي الله عنه غضب على من يقدح في عائشة حليلة رسول الله ﷺ. والسيدة عائشة هي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ كما جاء في البخاري وغيره، وكان الوحي ينزل على الرسول ﷺ وهو في لحافها دون غيرها من نساء النبي. وطلب أن يذهب إلى بيتها في مرض الموت وسمحت نساء النبي له بذلك فمات عنها، وفي الحديث الصحيح ما معناه بأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وأيضا أنها زوجة الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة. والآثار النبوية عن فضل عائشة أكثر من ذلك بكثير جدا، ويكفي أن على بن أبي طالب رضي الله عنه، أكرمها بعد الأسر، وجهازها جهازا لائقا بالسفر حتى أعادها إلى بيتها معززة مكرمة.

أما الزبير بن العوام رضي الله عنه، فهو أحد المبشرين بالجنة، وهو أول من سل سيفه في سبيل الله وهو من المهاجرين إلى الحبشة ومن أبطال غزوة بدر بل ومن أكبر أبطال معركة أحد وهو من أطلق عليه الرسول ﷺ أنه من حواريه، قائلا ما معناه في غزوة الخندق «لكل نبي حوارى وحوارى الزبير».

وفي كل معركة كان الزبير بطلا في المعركة مع بني قريظة وفي غزوة اليرموك وفي فتح مصر، وقد مدحه حسان بن ثابت في أبيات من الشعر لا تزال محفوظة أثبت فيها حسان بن ثابت أن الزبير فارس شجاع وبطل

مغوار وأنه حوارى الرسول وأن الزبير كان على عهد النبي وهدية ومنهجه.
وهذا طلحة بن عبيد الله فقد حضر كل المعارك التي خاضها رسول
الله ﷺ وهو أحد المبشرين بالجنة، وكان البطل المغوار في معركة أحد،
ولا تذكر معركة أحد إلا وذكر طلحة في دفاعه المجيد عن رسول الله ﷺ
وهو بوصف الصحابة كان شهيدا يمشي على الأرض، وكان سخيا ينتق
في سبيل الله كثيرا.

أما على بن أبي طالب فلا يحتاج إلى كلام وكذا من في جيشه من كبار
الصحابة من الثابت أن كلاً من طلحة والزبير والسيدة عائشة رضي الله
عنهم خرجوا إلى البصرة وبدأوا في تحريض القبائل بدعوى القصاص
لعثمان ؓ، وأن ذلك للضغط على علي ؓ لتحقيق ذلك، وهذا بداية
يقود إلى الصدام وبذلك حتى ولو كان هناك سبئية - أتباع ابن سبأ
ينفخون في نار الفتنة، فإن هناك مسئولية على هؤلاء الصحابة.

وقد أرسل كل من طلحة والزبير والسيدة عائشة إلى أعيان وأشراف
القبائل يستعينون بهم على قتل عثمان وقد استجاب لهم الكثيرون بالطبع،
بل إن السيدة عائشة نفسها أرسلت رسائل إلى الأنصار تدعوهم لمناصرة
هذا الفريق.

ومن الثابت أيضا أن عليا ؓ كان منكرا لقتل عثمان وتبرأ من دمه وقد
أعلن ذلك بوضوح في خطبه ومواقفه بل وتبرأ علنا من قتل عثمان ولكنه

كان يريد أن يثبت أولا من قتل عثمان ويحدد لهم تحديدا، وأن ينتظر حتى تستقر له الأمور فتؤخذ الحقوق، وأن على الجميع الانخراط تحت لواء الخلافة فتقوى الشوكة وتستقر الأحوال ثم يرفع الأمر من أولياء الدم، وأن تأخير القصاص أقل مفسدة من تعجيله، لأن ذلك قد يفتح بابا عريضا للقتال بين المسلمين وبين القبائل المختلفة وهذا بالطبع يوافق رأي جمهور علماء السنة حتى يومنا هذا، أما الطرف الآخر فيرى ضرورة القصاص الفوري من قتلة عثمان مهما كان الأمر إعمالا لشريعة الإسلام في القصاص. ومن الغريب هنا أن صداما وقتالا وقع بين أتباع عائشة وطلحة والزبير وبعض قتلة عثمان بقيادة حكيم بن جبلة، وانتهى الأمر بقتل جماعة حكيم بن جبلة جميعا، إلا واحدا منهم نجح في اللجوء إلى قبيلته، ولم يذهب وراءه جيش طلحة والزبير لقتله خوفا من قبيلته، وهذا اعتراف عملي بصحة موقف على في تأخير القصاص.

ومن الثابت أيضا أن محاولات للصلح بين الطرفين قد حدثت ومنها وساطة القعقاع بن عمرو التميمي، وكان يرى الثاني في القصاص من قتلة عثمان حتى تنتهي الخلافات وتجتمع كلمة الأمر على أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأن عليهم أن يبايعوا عليا، وكاد الصلح أن يحدث، إلا أن الأمر سار إلى الحرب بعد ذلك، بسبب المتطرفين ودعاة الفتنة وغيرها من الأسباب، التي لا تسقط المسئولية عن أي من الطرفين لا على ولا

طلحة ولا الزبير ولا عائشة رضي الله عنها.

وفي كل الأحوال هذا صراع سياسي على السلطة، أو خلاف يصل إلى القتال في وجهات النظر، وليس صراعا دينيا فيه كفر وإسلام، مثلا وأنه لو كان الجيشان قد انصرفا بعد وساطة القعقاع، لما نجح المتطرفون ودعاة الفتنة من الجيشين في إشعال الحرب.

ويرى جمهور العلماء أن عليا عليه السلام كان على صواب والطائفة الأخرى سواء من جيش طلحة والزبير أو جيش معاوية مع اختلاف بينهم كانوا معبأة متأولين وأن أصحاب كل هذه الطوائف مؤمنون لا يخرجون بالقتال بينهم عن الإيمان ولا يفسقون.

الصراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما يدخل تحت نفس التقييم، فالجميع لا يكفر ولا يفسق بل هو متأول، وصحيح أن معاوية رضي الله عنه صحابي جليل ولكنه ليس من المبشرين بالجنة ومن ثم فإن معركة صفين أقل دلالة في الأمر من موقعة الجمل.

الصراع سياسي بحثا عن السلطة، أو تأول واختلاف وجهات نظر، وكل يتصور أنه على الصواب، أو على الأقل يتصور أن هذا لا علاقة له بثواب الدين، فهو خلاف على أمور دنيوية ولكن المشكلة أن الذين

فسروا الموضوع تفسيراً دينياً مثل الشيعة مثلاً وصلوا إلى حدود تأويل آيات وأحاديث وأحداث لإثبات ليس أحقية على في الخلافة، بل إلى أنه وصي النبي ﷺ، وأن هناك نص ديني يعطيه الحق في الإمامة له ثم للحسن والحسين ثم أبناء الحسين، وأن ذلك جزء من الدين، وبالتالي فهم يخطئون أبابكر وعمر وعثمان وهؤلاء بدورهم أي الشيعة انقسموا فيما بعد إلى جماعات كثيرة مثل الإمامية والإثنا عشرية والإسماعيلية وغيرها وكان الخلاف بين فرق الشيعة خلافاً دينياً أيضاً.

وهناك أيضاً الخوارج، الذين فسروا الأمر تفسيراً دينياً بمعنى أنهم كفروا معسكر معاوية، وأرادوا أن يوافقهم على ذلك، فلما رفض كفروه هو أيضاً، وأصبح الخوارج يكفرون علياً ومعاوية وعمرو ابن العاص، وكل من لم يعترف بكفر هؤلاء من المسلمين، بل وكفروا مرتكب الكبيرة، ثم انقسموا إلى جماعات شتى، كلها تكفر بعضها البعض وتتقاتل، ومن الغريب أن هؤلاء من أكثر الناس تعبدًا وورعًا وشجاعة، ولكن عقولهم ضعيفة، كحالة المتطرفين في كل زمان ومكان. وهكذا فإن إدخال الدين في الصراع السياسي مفسدة كبيرة جداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن المفارقات الطريفة في هذا الصدد أنني كنت أتحدث عن ضرورة عدم تحويل الصراع السياسي إلى صراع ديني، لأن ذلك يؤدي إلى نتائج

وخيمة من تفكيك المجتمع وظهور فرقة دينية جديدة على غرار الاثنا عشرية، الشيعة الإمامية، أو الإسماعيلية أو فرق الخوارج، لأن تحويل الصراع السياسي إلى صراع ديني، يضطر المتنازعين إلى استخدام نصوص دينية لإثبات صحة موقفهم، ثم تكفير الآخر، ثم الانعزال عن المعارضين لرأيهم، ويؤدي في النهاية إلى تحول طرف أو أكثر في الصراع إلى فرقة دينية جديدة، وكنت أستدل في هذا الصدد بمعركة الجمل، التي كان فيها الطرفين من المبشرين بالجنة، وبالتالي لا يمكن تكفير طرف منهم، وإزاء ذلك الرأي رأيت وسمعت بنفسني أحد المتعاطفين مع الإسلاميين في مصر، يقول إنه لا دليل أصلاً على وقوع موقعة الجمل حتى لا يعتد بها بالصراع السياسي بدلاً من الصراع الديني، وهذا أمر مضحك بالطبع، وطلب مني أن آتي بدليل على وقوع تلك المعركة، وبديهي أنني رفضت أن آتية بدليل، لأنه أمر بديهي ومعروف ومشهور، فيمكنك أن تختلف على الأحداث والتفاصيل، ولكن أن تنكر الواقعة ذاتها، فهذا أمر مضحك، وقلت له فقط إنه بالقياس إلى ذلك، فهل لديك دليل على وجود شخصية نابليون بونابرت مثلاً أو صلاح الدين الأيوبي أو قطز أو الحرب بين الفرس والروم مثلاً، وضحك الحاضرون.
